من حديث الشعر والنثر

حملتني الظروف الراهنة على أن أقف من هذا الكتاب موقف الدارس الناقد ، وقد وقفت منه فيما مضى موقف القارىء المستوعب وكان اختلاف الاتجاه في الحالين لاختلاف البواعث التي حدت بي إلى قراءة الكتاب .

قرأته فيما مضى لأستفيد من معارفه إثر ظهوره ، وهأنذا أقرؤه مع طلابي بمدارس السودان ، لأبصرهم بما اشتمل عليه من آراء قيمة وبحوث طريفة لمست في كثير منها الدليل الناصع والنهج القويم . غير أني وقفت — واستوقفني طلابي — عند بعض الآراء فلم أجد لها دليلا من معقول أو منقول يشفي الغلة ويحمل على التصديق وسأعرض لبعض منها بالدراسة عل فيها شيئاً من الهداية للطلبة الدارسين .

١ — قتل ابن المقفع :

يعتقد المؤلف بأن إيمان ابن المقفع لم يكن صحيحاً فهو يقول « ولكن إيمانه لم يكن فيما يظهر صحيحاً ولا خالصاً لله فقد كتب في الزندقة كتباً كثيرة اضطر بعض المسلمين أن يرد عليها في أيام المأمون ... »

يعتقد هذا الاعتقاد ثم ينفي أن تكون الزندقة هي التي قتلته دون أن يلتمس لذلك دليلا فلم يزد على أن قال : « أما أنا فأرجح جداً أن الذي قتل ابن المقفع ليست الزندقة ... » ونحن لا نجهل أن كثيراً من الباحثين قد دافعوا عن إيمان ابن المقفع إكباراً للرجل وضنا بمثله أن يعود إلى الزندقة وقد من الله عليه بالإسلام وحق لهم وقد حاولوا إبطال هذه التهمة بالدلائل أن يبطلوا ما ترتب عليها من قول القائلين : إن الزندقة هي التي قتلته .

أما الدكتور فيثبت الزندقة ثم ينفي أن يكون القتل بسببها كأنها الأمر الهين الذي لا يستوجب قتلا ولا يستدعي حساباً مع أننا نعلم أن الزندقة في العصر العباسي قد امتحن بها طائفة من المفكرين والأدباء ولم يعنهم حين نزل بهم بلاء الحاكم أقدارهم ولا علمهم وربما قتل بعضهم زورا وعدواناً للشبهة الباطلة التي زيفها الحساد الناقون .

والمؤلف ينفي كذلك أن يكون العهد الذي كتبه لعبد الله بن علي على أبي جعفر المنصور هو الذي قتله فيقول : « ولم يقتله تشدده في الأمان الذي كتبه لعبد الله بن علي لأنه يوشك أن يكون أسطورة ليس لدينا منها نص » .

وأعتقد أن نعت العهد بالبطلان — لأنه لم يصل إلينا — حجة لا تنهض على أساس فكم من عهود أضاعها الزمن ، وكم من كتب عفى عليها القدم وبقيت لنا أخبارها فيما بقي من أخبار السابقين ، وإذا كان هناك أثر جدير بالضياع فهذا الأثر الذي يعارض مشيئة الحاكم ويقيده بقيود قاسية لا يرتضيها لنفسه ومنها طلاق النساء وتحرير العبيد إذا ما نقض العهد :

على أننا إذا التمسنا سبب القتل فيما كتب الدكتور وجدناه سبباً لم يشر إليه نص من التاريخ ولم يقل به من كان في عهد ابن المقفع أو بعده بقليل وهو إلى جانب هذا تلمس لأشياء لم نجد لها قوة السببين السابقين : فهو يقول : إن رسالة الصحابة هي التي قتلته ويسرد منها ما يراه مثيرا لحفيظة الخليفة ومشجعا له على قتل الرجل .

لست أفهم أن تزلف الكاتب إلى الخليفة بنصيحة من النصائح بعد أن يمهد لها بالثناء المستطاب مما يدعو إلى الانتقام والقتل .

ولست أفهم أن إشارته عليه بأن يكرم جند خراسان والعراق وأن يأخذ الحيطة من جند الشام مما يريب الخليفة في أمره إلى الحد الذي يدفعه إلى الفتك به .

ولست أعتقد كذلك أن اقتراحا يتقدم به كاتب فيبسط فيه اختلاف القضاة في الأمر الواحد ثم يرجو أن يكون البت في مثل هذا لولي الأمر مما يكون له كبير أثر في نفوس الحاكمين .

وما جريمة ابن المقفع حين يتوسل إلى الخليفة طالبا «أن يعين في الأمصار جماعة من الخاصة يكون أمرهم تأديب العامة ومراقبة أعمالهم فإن العامة لا تصلح بنفسها إلا إذا وجدت مؤدبين من

الخاصة والخاصة لا تستطيع أن تعيش إلا إذا كان لها من الإمام مؤدب » ؟

وأى ثورة أرادها — كما يقول الدكتور — وهو فى هذه الرسالة ناصح متودد يرجو أن يبسط الخليفة سلطانه فى كل أمر وتنفذ مشيئته فى كل عمل ؟ !

والحق الذى لا شك فيه أن هذه الآراء وأشباهها ليس لها من جلال الخطر ما يرفعها فوق الزندقة أو يحطها فوق مكانة العهد الذى قيد فيه الخليفة بقيود قاسية ما كان أغناه عنها .

٢ — بين الكتابة والشعر :

ويرى الدكتور فيما يرى أن الكتابة تختلف عن الشعر والخطابة من حيث فهم الناس لها فالناس عنده متساوون فى فهم الكتابة وفى التأثر بها ولكنهم متفاوتون أما الشعر والخطابة فهو يقول : « ونحن عندما نقرأ عبد الحميد أو ابن المقفع لا نجد عندهما اللذة الفنية إذا كنا فى طبقة واحدة أو اشتركنا فى ثقافة واحدة وإنما يقرؤهما منا ذوو الثقافة العالية والساذجة والمتوسطة والبسيطة وكلنا يجد لذة ومتعة فنية . بينما تختلف لذتنا فى قراءة الشعر باختلاف حظوظنا من الثقافة . فليس كل الناس يقرأ جريرا والفرزدق أو يتذوق زيادا والحجاج ... »

وأعتقد أن الواقع يخالف هذه القاعدة التى وضعها الدكتور ؛ فأكثر الشعر أوضح فى معناه وأبين فى لحواه من الكتابة وبخاصة فى العهد الذى يتحدث عنه المؤلف ؛ فكثير من الناس يفهمون كثيراً من شعر جرير ولكنهم لا يفهمون قليلا ولا كثيراً من المقال الذى ساقه الدكتور لعبد الحميد وقد جاء فيه فى وصف الرماح : « معاقص عقدها منحوتة ووصم أودها مقوم ، أجناسها مختلفة وكعوبها جعدة وعقدها حنكة شطبة الأسنان محكمة الجلاء ... »

أما الخطابة فالقاعدة المطردة فيها أن تكون أسهل من النوعين ليفهمها السامعون فى يسر ويدركوا ماجاء بها فى سرعة وإلا ضاعت قيمتها وذهب الغرض من إلقائها .

على أنى اتهمت معرفتى أمام هذه الحقائق فعرضت على الطلاب طائفة من شعر جرير وتلوت شيئاً من خطبة زياد البتراء فوجدتهم مقبلين متأثرين ثم أقبلنا على الكتاب نقرأ ما جاء فيه من رسالة عبد الحميد فرأيتهم أقل تأثراً وفهما .

٣ — فى كتابة عبد الحميد :

ساق المؤلف أدلة ثلاثة حاول فيها أن يثبت أن عبد الحميد الكاتب متأثر بثقافة اليونان وكتابتهم ولست أريد أن أبطل هذا الرأى أو أثبته ولكنى أقول : إننى لم أجد فى هذه الأدلة — أو على الأقل فى اثنين منها — نصاعة أو قوة تحمل على الإقناع :

فأما أحد الدليلين فهو ما ذكره الدكتور حين قال : « وعندى فى هذه الرسالة نص بسيط يدلنى على أن عبد الحميد كان فى هذه الرسالة متأثر إلا باليونانية وحدها بل بما كان مألوفا عند اليونان فهو يقول فى نصحه لولى العهد ، ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل خاصتك وثقاتك ونصائحك وتقدم إليهم فى ضبطهم » ونحن نعلم أن الوحدات التى كان يتكون منها الجيش البيزنطى كانت وحدتين اللجيو ويتكون من ستة آلاف رجل ثم السنتريو وعدده مائة رجل ورئيس المائة هو السنتريونس « فنظام الجيش هذا ما أشك فى أنه متأثر فيه برسائل الحرب عند اليونان . » اهـ

لا أستطيع أن أفهم هذا الكلام إلا إذا حدثنى التاريخ أن جيوش العرب قبل عبد الحميد كانت تقاتل جملة ولم يكن لها إلا رئيس واحد وأن هذا الرئيس لم يكن يعتمد فى تحريك جيشه على أعوان من الأبطال يتولون جماعات من الجيش يتقدمون بهم أو يحجمون وأنا أعتقد أن تقسيم الجيش سنة طبيعية هدت إليها ظروف القتال والسرعة فى إنجاز الأعمال وقد حفظت لنا اللغة كثيراً من الأسماء التى تدل على أن العرب قد فهموا هذا وجربوه فى حروبهم : ومن ذلك المقنب والقو والقنبل والمنصر والسرية والحضيرة والجريدة وهكذا ومن بين هذه الأسماء ما يدل على المائة وأعتقد أنها كلمات استخدمها العرب قبل عبد الحميد ولم يكن لليونان ولا لغيرهم آثار فى وضعها .

أما الدليل الثانى فهو أقل من هذا فى المنزلة وأضعف منه فى الحجة إذ يتخذ المؤلف تقسيم عبد الحميد لرسالته الطويلة إلى أجزاء أساساً للقول بأنه نقل هذه الطريقة عن اليونان .

يقول الدكتور هذا وهو يعلم حق العلم أنها رسالة طويلة توشك

أن تكون كتابا وأنها تناولت نواحي مختلفة وضروبا عدة . ومن حق الكاتب في مثل هذه الرسائل الطويلة أن يستريح بين الفقرة والفقرة ومن حقه كذلك أن يفصل كل ناحية عن الناحية التي تليها لاختلاف الاتجاهين . وليس من الضروري أن يتعلم عبدالحميد هذه الطريقة عن أمة بعينها فهي الطبيعة التي يوحي بها طول الرسائل

أقول هذا وأنا مقدر لزعيم الأدب فضله ومعترف بمجهوده الذي أفاد اللغة العربية ونهض بها في بلاد الشرق عامة .

وسأحاول فيما بعد إن شاء الله أن أناقش ما بقي من مسائل على في هذا النقاش بعض الفائدة للطلاب . والله الموفق .

أحمد أبو بكر ابراهيم

المدرس المنتدب بمكتب الثانوية بواد مدني بالسودان

الفن الهندي(*)

هـذا كتاب لطيف الحجم كبير الفائدة ، يضم بين دفتيه أربع مقالات عن الفن الهندي كتبها أخصائيون ممن وكل إليهم تنظيم المعرض الهندي بالاكاديمية الملكية .

فالمقالة الأولى كتبها الأستاذ راولسن ، أحاط بها بالتاريخ الاجتماعي والفني للشعب الهندي منذ العصر البليوليني ، معتمداً على الحفريات والكشوفات . وتحدث عن الفتح الإسلامي وبين أن الدين الإسلامي هو دين الاخاء والمساواه : فالأمير والعبد سواء أمام الله وكان الاسلام من أهم الأسباب التي جعلت جنوده ينجحون في غزو الهند المتنافرة المذاهب والعقائد ، وتكلم عن الدولة الغزنوية فقال : « وجاء شيوخ البراهمة سعياً إلى محمود الغزنوي وعلى أكفهم أموال عظيمة يقدمونها للفاتح المنتصر ويتوسلون إليه إلا يحطم آلهتهم فأجابهم الرجل: إني محطم أصنام ولست بائع انصاب » وقد أولى الكاتب السلطان محمود الغزنوي الكثير من عنايته ، فتحدث عن الناحية الثقافية التي امتاز بها هذا الرجل ، وظهور الفردوسي . صاحب الشاهنامه (كتاب الملوك) والبيروني المؤرخ العالمي في أيامه ، وتكلم عن الهند المغولية ولكنه لم يتعرض لوصف عمائرها ، وقد وصفها أستاذنا الدكتور عبد الوهاب عزام بك في ١٨ مقاله نشرتها الرسالة ، ظهر آخرها بالعدد ٧٦٣ .

وفي المقالة « الثانية تكلم الأستاذ كوردنجتون عن النحت وذهب في بحثه إلى ٥٠٠٠ سنه . وتنقل بين عصور الفن الوثني ، ولم يجد في الاسلام مادة لبحثه إذ أن الاسلام بطبيعته ما حق للاصنام المنحوته .

وتحدث الأستاذ ولكنس في المقالة الثالثة عن التصوير . وللاسلام في الهند باع طويل في هذا النوع من الفن ، يقول عنها الكاتب أنها وصلت حداً من الجودة والفنى والتنوع في دولة المغول بحيث يستعذبه الذواقع مهما اختلفت الأمزجة .

والمقالة الأخيرة كتبها الأستاذ أروين بعنوان (الفنون الصغرى الهندية) . والواقع أنه لم يحدثنا عن الأساليب الفنية التي تناولها الفنانون بقدر ما حدثنا عن تاريخ الصناعات اليدوية ، فبعد عن الغرض الفني وقد شرحها الدكتور زكي محمد حسن في كتابه فنون الإسلام وأدخل في مقاله الحديث عن التصوير بطريقة (الفريسكو) مع أنه قد اصطلح على جعله ضمن فن التصوير .

والمقالات شائقة مفيدة ولكن الكتاب لا يمكن أن يصور للقارىء فنون الهند جميعها . فعنوان الكتاب إذن لا يتفق مع ما يحتويه ، ولا ندري كيف اتخذ السير ريتشارد وينستدت هذا العنوان لهذه المقالات الأربع .

والكتاب يقع في ٢٠٠ صفحة وبه ١٦ لوحة ورسوم توضيحية أخرى قيمة ، وهو يعرف ما بين القارىء وبين دولة الهند التي صارت إلى هند ستان وباكستان تلك التي تريد أن تعود من جديد لتلعب دورها على مسرح النشاط العالمي ، نرجو أن يختلف كثيراً عن تلك الأدوار المسوخة المقيتة التي تمثل اليوم في هيئة الأمم المتحدة .

(القاهرة) مصطفى كامل ابراهيم

وكيل اتحاد النقابة الأثرية

(*) نشره فابر وفابر بلندن Fader & Fader ١٩٤٧